الحقيقة المحمدية عند ابن عربى

للأستاذ فوزى عرفه

يمثل ابن عربى فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية لوناً متميزاً . ذلك لأنه قرأ كتب الفلسفة وتأثر بها فزاوج بينها وبين طبعه الصوفى فى تمثل جميل ونظرات غنية عميقة فتحت مجالات جديدة للبحث والتنقيب يخوض فيها ذوو البصائر الفائقة والأذواق المرهفة فيضيفون إلى الإسلام غنى وثروة ويزيده نصوعاً ووضوحا .

يقول أستاذنا الجليل الدكتور محمد مصطفى حلمى « ابن عربى مثال صادق من الأمثلة التى يصح أن تتخذ دليلا على مبلغ ما وقع بين الفلسفة والتصوف من تزاوج إبان القرنين السادس والسابع . فهو وإن كان صوفيا من أصحاب الأذواق يصطنع ما يصطنعه هؤلاء من رياضات ومجاهدات ويؤثر ما يؤثرون من ذوق تنكشف فيه الحقيقة فقد انطوى كثير من مؤلفاته على كثير من المعانى الفلسفية والمنازع الميتافيزيقية التى تخيل إلينا ونحن نقرؤها أن كلامه فيها أدنى إلى أن يصدر عن صاحب نظر عقلى واستدلال منطقى إلى أن يصدر عن صاحب ذوق ووجد وحال » .

لهذا أثار ابن عربى حوله من المجادلة والمناقشة ألواناً من المعارك المحتدمة التى اشتد أوارها وازداد ضرامها وتعصب له أو عليه فريق فبعضهم نافح وكافح من أجله كمجد الدين الفيروزبادى وقطب الدين الحموى وصلاح الدين الصفدى وشهاب الدين عمر السهروردى وفخر الدين الرازى وجلال الدين السيوطى فى كتابه « تنبيه الغبى فى تبرئة ابن عربى » وعبد الرازق القاشانى وعبد الغنى النابلسى .

وقد لقى فى سبيل عقيدته من العنت والرهق فى حياته ومماته الشىء الكثير . فقد كادت العامة تفتك به فى مصر وكان بعض القاصرين يبولون على قبره وأراد أحد المنكرين أن يحرق تابوت الشيخ فخسف به دون القبر بتسعة أذرع فغاب فى

الأرض . والغالب أن العامة أنكرت عليه عقيدته لأنها قصرت عن فهم مراده إذ كان حسن السيرة طيب الخلق وما أنكر عليه من أنكر إلا لدقة كلامه لا غير فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفاً من حصول شبهة فى معتقده يموت عليها لا يهتدى لتأويلها على مراد الشيخ .

وليس يهمنا فى هذا المقام أن ندافع عن الشيخ ولا أن نبين فضله ومآثره وإنما نريد أن نعرج على نظريته الهامة فى الحقيقة المحمدية وكيف استطاع هذا الشيخ الفذ أن يعالج هذه المسألة فى جدة وطرافة ويعبر عنها تعبيراً يدل على أصالة وحسن تذوق .

يرى ابن عربى أن النبى ﷺ أول التعينات الذى تعين به الذات الأحدية قبل كل تعين فظهر به من التعينات الغير المتناهية. والتعينات مرتبة ترتب الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص متدرج بعضها تحت بعض . والكلمة المحمدية تشمل جميع التعينات ولذلك فهى حكمة فردية لأنه واحد فرد فى الوجود لا نظير له وليس فوقه إلا الذات الأحدية المطلقة المتنزهة عن كل تعين وصفة واسم ورسم وحد ونعت . تلك كلمة المحمدية الفردية مطلقا ولهذا أطلق عليه الشيخ فص الحكمة الكلية . ولكن للأنبياء أيضاً التعينات الكلية ولذلك قال عليه السلام فى حديث القيامة .. إنه يجىء النبى ومعه الرهط والنبى ومعه الرجلان والنبى ومعه الرجل الواحد والنبى وليس معه أحد فله الجمعية المطلقة .. ولذلك جاء فى حقه وحق أمته .. وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .. وجاء أيضاً .. وما أرسلناك إلا كافة للناس .. ولهذا كان الاسم الأعظم مع نبينا محمد ﷺ دون غيره من الأنبياء ومن فرديته يعلم سر قوله « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وكونه خاتم النبيين وأول الأولين وآخر الآخرين ومن كليته وجمعيته سر قوله « أوتيت جوامع الكلم » .

ثم كانت منشأته العنصرية خاتم النبيين وأول الأفراد الثلاثة ذلك لأن أول التثليث الاعتبارى إنما هو بالعلم والعالم والعلوم ومظهره فى الوجود هو هذا الأكمل بجامع الأحدية والشفعية والوترية فله الأولوية ومازاد على هذه الأولوية فإنه عنها فكان صلى الله عليه وسلم أول دليل على ربه لأنه أوتى جوامع الكلم التى هى

مسميات أسماء آدم فأشبه الدليل فى تثليثه والدليل دليل نفسه .

وهكذا جعل ابن عربى من حقيقة الرسول الفردية الأولى بما هو مثلث النشأة لذلك قال فى باب المحبة التى هى أصل الوجود — مخبراً عن النبى — « حبب إلى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عين فى الصلاة » وقد ابتدأ الرسول بذكر النساء لأن المرأة جزء من الرجل فى ظهور عينها ومعرفة الإنسان بنفسه مقدمة على معرفته بربه لذلك قال عليه السلام « من عرف نفسه فقد عرف ربه ».

وما دام فى الإنسان جزء من الروحانية السامية فإنه يتقطع شوقاً إلى الذات الإلهية وقد قال تعالى « ونفخت فيه من روحى » وقال « يا داود إنى أشد شوقاً إليهم » فالشوق متبادل بين البشر والله . فأولئك الذين عرفوا ربهم يوالون أعمالهم ويتمنون لقاء ربهم بارتفاع حجاب أنينهم ليشهدوه بأعينهم ولا يتم بهم ذلك إلا عند الموت قبيل شوقهم إليه كما قال فى حديث التردد « ما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نسمة عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له من لقائى » وقال الرسول عليه الصلاة والسلام « إن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت » ومن هنا يكون الموت رجعة إلى الأصل الذى صدر منه الإنسان ولهذا يتمناه أهل الشهود من الموقنين لأنهم فى كل وقت يشاهدونه ببعض تجلياته ويشتاقون إلى نور جماله فى سائر تجلياته وفى هذا قال أبو يزيد رضى الله عنه :

شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت

وهكذا يرى ابن عربى أنه ليس الرسول عليه الصلاة والسلام على هيئة الله تعالى وصورته فقط بل وكذلك أبناء آدم جميعاً والدليل على ذلك أن الإنسان لايشتاق إلا إليه لأنه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه والله تعالى جمع فى هذا الإنسان جميع الصفات العنصرية والروحية فخلقه على صورته لأنه من الأركان الأربعة المسماة بالأخلاط ونشأ من ذلك أن أصبحت روح الإنسان ناراً ثم اشتق له منه شخصاً على صورته سماه امرأة فظهرت بصورته فحن إليها حنين الشىء إلى نفسه وحنت إليه حنين الشىء إلى وطنه وليس هذا الحب المتبادل بين الذكر والأنثى إلا بإرادة إلهية سامية وقدرة رحمانية عالية .

وأما الطيب فقد ذكره الرسول الكريم من الأشياء الثلاثة المحببة إليه وذلك

لأنه لما كان حائزاً لجوامع الكلم وهى هيآت اجتماعية بحقائق الحروف الأولية أى للمعانى المتفردة الجنسية والفصلية والصفات العارضة التى يتركب منها الماهيات المسماة كلمات أى الحقائق الظاهرة بالوجود الخارجى فإن الأنفاس فيضان الوجودات على الحقائق النوعية المتعينة بالتعينات الشخصية حتى يتحقق بالتكوين هى الأنفاس والأعراف أى الروائح الطيبة فعند ذلك حبب له الطيب فلذا أخره عن النساء تنبيها على أن النفس متأخر عن الأصل المتنفس الذى هو الأم أى التعين الأول وأول ما ظهر عن هذه الأم المسماة أم الكتاب باعتبار هو النفس الذى نفس الله به عن الحقائق التى هى أحرف هذا الكتاب وكلماته فظهرت به فهو مسبوق بالمتنفس بذلك النفس . وقد جعل الطيب تعالى فى هذا الالتحام النكاحى فى براءة عائشة رضى الله عنها فقال « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون » فجعل روائحهم طيبة لأن القول نفسى وهو عين الرائحة فمن حيث هو إلهى فهو طيب كله ولذلك قال فى خبث القوم « هى شجرة أكره ريحها » ووصف الملائكة بأنها تتأذى بالروائح الخبيثة ومن هنا لم يحبب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الطيب من كل شىء .

وأما الثالث الذى به كملت الفردية فالصلاة فقال وجعلت قرة عينى فى الصلاة لأنها مناجاة بين الله وبين عبده كما قال الله تعالى فاذكرونى اذكركم وهى عبادة مقسومة بين الله وبين عبده نصفين فنصفها لله ونصفها للعبد . قال تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل يقول العبد بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرنى عبدى — يقول العبد الحمد لله رب العالمين — يقول الله حمدنى عبدى — يقول العبد الرحمن الرحيم — يقول الله أثنى على عبدى — يقول العبد مالك يوم الدين — يقول الله مجدنى عبدى — ثم يقول العبد إياك نعبد وإياك نستعين — يقول الله هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل — يقول العبد أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين — يقول الله فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل ، ولما كانت الصلاة مناجاة بين العبد وربه فهى ذكر ومن ذكر الحق

فقد جالس الحق وجالسه الحق ولذلك قال تعالى « أنا جليس من ذكرنى » ومن هنا تؤدى الصلاة إلى الرؤية ومن لم يحصل درجة الرؤية فى الصلاة فما بلغ غايتها ولا كان له فيها قرة عين لأنه لم ير من يناجيه ومن لم يسمع ما يرد عليه من الحق فما هو ممن ألقى السمع وهو شهيد . وليس الصلاة الا دلالة على تفرد الإنسان بخصائص الوجود جميعها ذلك لأنه يقوم بحركات والحركة المعقوله هى التى نقلت العالم من العدم الى الوجود ففى الصلاة جميع الحركات وهى ثلاثة : مستقيمة وهى حال قيام المصلى وأفقيه وهى حال ركوع المصلى ومنكوسة وهى حال سجوده ففى الأولى يمثل الإنسان نفسه لأن الإنسان مستقيم وفى الثانية يمثل الحيوان وفى الثالثة يمثل النبات وليس للجماد حركة من ذاته فإذا تحرك فإنما يتحرك بغيره .

وللصلاة آداب ينبغى اتباعها وأهم هذه الآداب عدم الالتفات لأن الالتفات شىء يختلسه الشيطان من صلاة العبد فيحرمه مشاهدة محبوبه بل لوكان الحق محبوب هذا الملتفت والتفت فى صلاته الى غيرقبلته بوجهه . . ولقد أخبرنا تعالى بأنه يصلى علينا فالصلاة منا ومنه . وعلى هذا يكون حال المصلى على قدر استعداده فإذا احتفى بالصلاة واهتم لها وأقبل عليها فى خشوع وضراعة أحس لذة لا تعدلها لذة أخرى ذلك لأنه جزء من الوجود المطلق فله كمالات ومحامد مختصة به وكمالات يشترك فيها مع غيره فهو بالقسم الأول يحمد نفسه أى هوية الحق المقيدة بقيد تعين يقابلها لأن تلك المحامد لا تظهر على الوجه الذى ظهرت فيه الا منه وبه لا من غيره فليس الحمد والثناء الا لله ومن الله فى الحالين .

ويدلل على ذلك بقوله « من مدح الصنعة فإنما مدح الصانع بلا شك فإن حسنها وعدم حسنها راجع إلى صانعها وإله المعتقد مصنوع للناظر فيه فهو صفته فثناؤه على ماأعتقده ثناؤه على نفسه » وهكذا ينتهى إلى نظرية توحيد الأديان حيث رأى أن جميع المتجهين إلى الله بقلوبهم وصلواتهم إنما يقومون بعملية تقرب وزلفى إلى الله فلا تختلف من معتقد إلى معتقد لأنها متجهة إلى المحيط بأحديته المطلقة فلابد أن يحيط بجميع الصور الحسية والخيالية والوهمية فعلى أى وجه يكون ظن العبد فى معتقده من تشبيه حسى أو خيالى أو وهمى أو تنزيه عقلى فالله هو الظاهر بصورة معتقده ذلك ولا يظهر له إلا بتلك الصورة سواء أطلق العابد

فى تصوره أو قيد إلا أن الله قد شمل كل شيء ووسع كل شيء علما فلا يسعه شيء لأنه عين الأشياء وعين نفسه والشيء لايقال فيه يسع نفسه ولا يسعها ومن هنا لايجب أن نلوم ذا معتقد على معتقده لأن الكل فى القافلة يسيرون وكلهم فى رحاب الله متلهفون يرتشفون .

وهكذا رأى ابن عربى فى الحقيقة المحمدية أنها أول التعينات وأشملها وأنه أوتى جوامع الكلم ذو الفردية المطلقة والمكانة السامية وإذا كان قد حبب اليه من دنيانا النساء والطيب وجعلته قرة عينه فى الصلاة فما ذلك الا لأن هذه الأمور الثلاثة تعبر عن جوهر الرسول الكريم وتفصح عن مقامه العالى العظيم .